# النفس والله فى فلسفة أفلاطون*

بقلم الاستاذ يوسف كرم
مدرس الفلسفة بالجامعة المصرية

## النفس

( ا ) إن فكرة النفس ماثلة فى جميع مؤلفات أفلاطون ، وقد رأينا أن نظرية المثل تتضمن القول بالنفس موجودة قبل اتصالها بالبدن ، من حيث إن هذه المثل ليست متحققة فى التجربة ولا مكتسبة بالحواس ، فلا بد من قوة روحية تعقلها ، أو بالأحرى تذكرها ، بعد أن عقلتها فى عالم يماثلها. ورأينا فى (تيماوس) والقوانين ، أن المادة لا تتحرك بذاتها ؛ فلا بد لتعليل الحركة من الرجوع إلى مبدأ غير مادى يتحرك بذاته ويحرك غيره ؛ وأن الجوهر المنقسم لا يعقل ، فلا بد من وضع العقل فى جوهر بسيط هو النفس ؛ أضف إلى ذلك الرد على المذهب المادى القائل فى ( فيدون ) : إن النفس توافق العناصر المؤلفة للبدن بحيث لا يكون لها وجود ذاتى بل ، تكون كالنغم بالاضافة إلى الالة والأوتار ( 85e-86 ) بأن التوافق والنغم نتيجة ، والنتيجة لا تباين المقدمات ؛ ولكن النفس تدبر البدن وتتحكم فى الأعضاء ، بل تقاوم البدن بالارادة متى كانت حكيمة ، ولم يكن ذلك ليتأتى لو كانت النفس نتيجة تناسق البدن وطبائعه فليست نغما ، ولكنه الموسيقى الخفى الذى يحدث النغم ( 92c-95a ) ؛ وعلى ذلك فالنفس حقيقة لا ريب فيها يدل على وجودها تذكر المثل والتعقل الخالص وحركة البدن وتدبيره بمقتضى الحكمة .

( ب ) على أن رأيه فى ماهية النفس وعلاقتها بالبدن لا يخلو من التردد والغموض . ففى المحاورة الواحدة « فيدون » يحد النفس تارة بأنها فكر خالص ، وطوراً بأنها مبدأ حياة وحركة للجسم،دون أن يبين ارتباط هاتين الخاصيتين ولا أيتهما الأساسية . وفى المقالة الرابعة من « الجمهورية» يجعل للنفس ثلاث قوى : العاقلة والغضبية والشهوية ، ثم يقول فى « تيماوس » بنفوس ثلاث : الواحدة إلهية خالدة والأخريان طبيعيتان فانيتان ، ويعين لكل منها محلا فى البدن . وبينا يشبه النفس فى « فيدر » بمركبة مجنحة ، الحوذى فيها العقل ، والجوادان الارادة والشهوة ، ويرى أنه قد يحدث فى الحياة السعيدة التى تقضيها النفس مع الالهة

* بدأنا بنشر هذه السلسلة ابتداء من الجزء الثانى من السنة الثانية لمجلة « المعرفة »

أن الحوذى لا يحسن القيادة ، أو أن يعصاه الجوادان ، وخاصة الجواد الجموح بالطبع وهو الشهوة ، فتهبط النفس من مقرها الالهى ـ إذا بكلامه فى « ثياوس » يشعر أن الغضبية والشهوية صنعهما الآلهة للحياة الأرضية والوظائف البدنية .

كذلك الحال فى علاقة النفس بالبدن ، فتارة يعتبرهما متمايزين تمام التمايز ، فيقول : إن الانسان النفس ، وإن البدن آلة ، وطوراً يضع بينهما علاقة وثيقة ، فيذهب إلى أن البدن يشغلها عن فعلها الذاتى ـ وهو الفكر ـ ويجلب لها الهم بحاجاته ولذاته وآلامه ، وأن الموت خلاص لها،وأن مهمة الفيلسوف العمل على النجاة من البدن جهد المستطاع ورياضة النفس على الموت ( Phédon 64-66 ) دون أن يبين ماهية هذا الاتصال وإمكان هذا التفاعل بين المادة والروح تفاعلا يذهب ـ فى ثياوس مثلا ـ إلى حد علاج النفس بالبدن والبدن بالنفس ، وقيام الشعور والادراك فى النفس عند تأثر البدن بالحركة المادية على ما بين هذه الحركة والظاهرة النفسية من تباين .

( ج ) وشغل أفلاطون شغلا كبيراً بمسألة الخلود ، ذكرها مراراً قبل أن يخصص لها «فيدون» وكان يحس إحساساً قوياً بخطورتها ووجوب بحثها من جهة ، وبضعف العقل بازائها من جهة أخرى ، فقال هذه العبارة الجامعة : إن العلم بحقيقة مثل هـذه الأمور ممتنع أو عسير جداً فى هذه الحياة ، ولكن من الجبن العدول عن البحث واليأس قبل الوصول إلى آخر مدى العقل ، فيجب إما الاستيثاق من الحق ، وإما ـ إن امتنع ذلك ـ استكشاف الدليل الأقوى والمخاطرة عليه لاجتياز الحياة، كما يخاطر المرء بقطع البحر على لوح خشب. ( Phédon 85 cd ) ؛ وهو يسوق أدلة ثلاثة : الأول أسهلها تناولا ، لأنه قائم على العقيدة القويمة وهى : ( أرفية ومصرية وفيثاغورية ) بتداول الأجيال البشرية ، فاذا كان صحيحاً أن النفس التى تولد فى هذه الدنيا تأتى من عالم آخر ذهبت إليه بعد الوفاة ، وأن الأحياء يبعثون من الأموات،ينتج لنا أن النفس لا تموت بموت البدن.ثم يعمم الدليل ويقول :ونحن إذا نظرنا فى التغير بالاجمال ـ وهو قانون العالم المحسوس ـ وجدناه تبادلا دائراً بين الاضداد يتولد الأكبر من الأصغر ، والأحسن من الأسوأ وبالعكس ، فتصح لدينا العقيدة القديمة بأن الحياة تبعث من الموت ، ولو لم يكن الأمر كذلك لانتهت الأشياء إلى الفناء ؛ وإذن فقد كانت النفس قبل الولادة وستبقى بعد الموت ( 70c-72e ) . ويتأيد هذا الدليل من ناحية أخرى ، ذلك أن هناك ضدين هما العلم والجهل ، وبعثاً من نوع آخر هو تذكر المثل ، فاذا كانت النفس قد عرفت المثل قبل هبوطها إلى الأرض ، فليس ما يمنع بقاءها بعد الموت ( 72e-77d ) .

والدليل الثانى يدور على تعقل المثل ، فان هذه بسيطة وبالتالى ثابتة ، إذ أن المركب هو

الذى ينحل إلى بسائطه ويتحول ، أما البسيط فلا يجوز عليه تحول أو انحلال ؛ فلا بد أن تكون النفس التى تعقل المثل شبيهة بها على حسب القول القديم : الشبيه يدرك الشبيه . وعلى ذلك فالنفس بسيطة ثابتة ( 78b-84b ) .

ولكن أفلاطون يقر أن كل ما يلزم من الدليل الأول بفروعه الثلاثة هو أن النفس كانت قبل الولادة ، ومن الثانى أنها شبيهة بالمثل ؛ فمن هذين الوجهين لا تتنافى خصائصها مع البقاء، أما البقاء نفسه فلما يقم البرهان عليه ، إذ من يدرينا أن النفس لا تفنى بتلاشى قوتها بعد أن تكون تقمصت أجساماً عدة ؟ (86c-88b) . هنا يلجأ أفلاطون إلى نظريته فى المثل والمشاركة، ويقدم دليلا ثالثاً ، فيقول : لما كانت النفس حياة فهى مشاركة فى الحياة بالذات ولا تقبل الماهية ما هو ضد لها إلا وتتلاشى كما يتلاشى البارد إذا قبل الحار ، ولكن النفس لا تقبل الموت ، فانها منافية له بالطبع من حيث إنها مشاركة فى الحياة بالذات البسيطة الباقية .فالنفس لا تتلاشى ( 105c-107 ) .

غير أن شعوره المزدوج بعظم المسألة وبالضعف البشرى لا يفارقه . فنراه يعلن أن هذا الشعور يضطره لبعض التحفظ بازاء هذه الأدلة على وجاهتها عنده : بل يذهب إلى أن مقدماتها أنفسها مفتقرة لبحث أوكد ( 107ab ) ؛ وهو يعود للموضوع فى « فيدر » ( 245c-246 ) ثم فى «القوانين» ( 893-896 ) ، ويعرض دليلا جديداً قائماً على ماأسلفنا فى تقسيم الحركة إلى ذاتية وقسرية ، وتعريفه النفس بأنها ما يتحرك بذاته ، وتحرك المادة فيقول من ناحية : إن ما يتحرك بذاته فهو خالد ، من حيث إنه لا يوجد فيه ولا فى غيره ما يقف حركته ؛ ومن ناحية أخرى : إذا كانت النفوس علة الحركات الطبيعية فهى باقية ، إذ لو كانت تفنى لانتهت الطبيعة أيضا . ولسنا ندرى مقدار ثقته بهذا الدليل ، وإذا رحنا نقوم أدلته ونمتحن مقدماتها — كما يريد — وجدنا الأول يسلم بالدور تسليما،فلا نعاد عمه ولحتى يقع فى غلط هو أشبه بالمغالطة حين يدعى أن الضد يخرج من الضد ، وكلامه يدل فقط على أن الضد لا ينقلب إلى ضده حتى يتلاشى أولا كالحار والبارد،أو يكسب أو يخسر شيئا كالصغير يصير كبيراً وبالعكس . أما التذكر فليس التفسير الوحيد لتعقل المثل ، فقد نجردها من الجزئيات على مذهب أرسطو . وأما إن النفس حياة وحركة ، فلا يدل قطعاً على بقاء النفوس الانسانية إلا إذا صح أنها كل النفوس،وأن الحركة والحياة لها بذاتها ، وأن مشاركتها فى الحياة بالذات لا يجوز أن تكون مؤقتة كسائر المشاركات . يبقى تعقل المثل ، وهو الدليل الأقوى فيما نرى، فانه ينظر للنفس فى ذاتها لا بالاضافة للبدن والطبيعة ، ويراها روحية تدرك الروحانيات وتتوق إليها ، وتعلم ما بينها وبين المادة من تغاير ، وأن حياتها الخاصة لا تتحقق الا بخلوصها من المادة فى عالم يماثلها ؛ وهذه الفكرة منبثة فى محاورة « فيدون » من أولها إلى آخرها .

فهما يتشكك أفلاطون فى قيمة أدلته ، فان الشك لا يتناول العقيدة نفسها ، وكانت ثابتة عنده من مذهبه بأكمله ، ومما كان يملأ قلبه من إرادة الخير ، إذ يمتنع على من اقتنع بالروح والعقل والفضيلة أن يصدق بفناء النفس وغلبة المادة وبطلان الحياة الانسانية ، ولو لم يهتد إلى البرهان ، بل إن هذا الرجاء وهذا الشوق إلى السماء ، وهذا الأسف الرائع ـ لأن وحياً إلهياً لم ينزل ( 85d ) فيحيل الرجاء الجميل يقيناً وطيداً ـ كل أولئك لا يحمل فى طيه البرهان المبين : هل كان الانسان يطلب الخلود لو لم يكن خالداً ؟

أما مصير النفس بعد الموت فله فيه قصص طويلة ترجع كلها إلى أن الأخيار يلحقون بالآلهة وينعمون بسعادة مقيمة ، والأشرار يلقون قصاصهم فى الجحيم فى بعض المواضع ، ويتقمصون أجساداً حيوانية فى مواضع أخرى ، إلى أن يتطهروا من آثامهم ويعودوا أخياراً . وهو فى جميع تصوراته يصدر عن وجوب التكافؤ بين العمل والجزاء وإيمانه بالعدالة الالهية .

## الله

(ا) إن كتب أفلاطون ملأى بذكر الله والألوهية والآلهة ، وإن لفظ الله مشترك عنده بلا جدال ، وقد مر بنا ما يكفى للدلالة على ذلك ؛ ولكنا نصرف النظر مؤقتاً عن هذا الشرك الظاهر ، ونقول إننا نجد عنده جميع عناصر التوحيد واضحة قوية ، فقد رأيناه يضع المبدأ العام : « كل ما يحدث فهو يحدث بالضرورة عن علة » ، ويبرهن على وجود الصانع بالحركة والنظام ؛ فمن الناحية الأولى يقسم العلل إلى ذاتية وقسرية ، ويضيف الذاتية للنفس ، ويرتب النفوس حتى يبلغ إلى نفس عليا يسميها الله ؛ ومن الناحية الثانية يقرر أن النظام من العقل ، وأن العالم منظم فينتهى إلى أن الصانع نفس عاقلة مفعمة بالخير ؛ وهو فى الواقع لا يفهم العلة الحقة إلا على أنها عاقلة ، من حيث إن شيئاً لا يفعل إلا إذا قصد ( أو قصد به ) إلى غاية ، وإن الغاية لا تتمثل إلا فى العقل ، وعند هذه الصخرة يتحطم كل مذهب آلى .

ورأيناه يضع المثل ، لأنه وجد المحسوسات تتفاوت فى صفاتها ، فدله هذا التفاوت على أن الصفات ليست لها بالذات ، بل هى حاصلة فى كل منها بالمشاركة فيما هو بالذات . وخص بالذكر مثال الجمال فى « المأدبة » ، ومثال الخير فى المقالة السادسة من « الجمهورية » ، فقال عن الأول : إنه علة الجمال المتفرق فى الأشياء ، والمقصد الأسمى للارادة فى نزوعها إلى المطلق ، والغاية القصوى للعقل فى « استدلاله » لا يوصف ، أى لا يضاف له ، أى محمول ، لأنه غير مشارك فى شىء ، ولكن هو هو الاتحاد به تمام الخلود ونهاية الارب ؛ وقال عن الثانى : « فى آخر حدود العالم المعقول يوجد مثال الخير ، هذا المثال الذى لا يدرك إلا بصعوبة ، ولكنا لا ندركه إلا ونوقن أنه علة كل ما هو جميل وخير . هو الذى ينشر ضوء الحق على موضوعات العلوم ، ويعطى النفس قوة الادراك ، فهو مبدأ العلم والحق يفوقهما جمالا مهما

يكن لها من جمال . هو أسمى موضوع لنظر الفيلسوف ، والغاية من « الاستدلال » تعقله ، وإن جماله ليعجز كل بيان لا يوصف إلا سلباً ، ولا يعين إيجاباً إلا بنوع من التمثيل الناقص . وكما أن الشمس تجعل المرئيات مرئية وتعطيها الكون والنمو والغذاء دون أن تكون هى شيئاً من ذلك ، فان المعقولات تستمد معقوليتها من الخير ، بل وجودها وماهيتها ، ولو أن الخير نفسه ليس ماهية ، وإنما هو شىء أسمى من الماهية بما لا يقاس كرامة وقدرة . اعلم أن الخير والشمس لمكان : الواحد على العالم المعقول ، والاخر على العالم المحسوس . ومقصد أفلاطون واضح هو أن التفسير النهائى للشىء ، هو أن هذا الشىء خير أو مشارك فى الخير ، أى أن العلة الغائية هى العلة الحقة المطلقة .

(ب) وفى المقالة العاشرة من « القوانين » يذهب إلى أنه يمكن تقرير بضعة حقائق عن الله و( الآلهة ) ، هى وجوده وعنايته وعدالته ، وأن إنكارها جملة أو فرادى جريمة ضد الدولة يجب أن يعاقب عليها القضاء ، لأن هذا الانكار يؤدى مباشرة إلى فساد السيرة ، فهو إخلال بالنظام الاجتماعى ، وقد ينكر الانسان الله بتاتاً ، وقد يؤمن به ثم ينكر عنايته ، وقد يؤمن به وبعنايته ، ثم يتوهم أنه يستطيع شراء رضائه بالتقدمات والقرابين دون التوبة والنية الصالحة . والبدعة الثالثة أشنع من الثانية ، لأن الاهانة فيها أعظم ، والثانية أشنع من الأولى لنفس السبب ، فان إنكار الله أهون من إنكار عنايته مع الايمان به ، وإنكار العناية أهون من تصوير الله مرتشياً . والأولى والثانية جديرتان بالمراجعة ، أما الأخيرة فأحق بالسخط منها بالتفنيد .

هنا يبين أفلاطون أن للالحاد مصدرين كبيرين : الواحد دعوى الطبيعيين أن العالم وجزئياته بما فيها النفوس نتاج حركة العناصر المادية غير العاقلة ، والاخر دعوى السوفسطائيين أن المبادىء الخلقية وضعية نسبية ، وأن ليس هناك خير وشر بالذات ؛ ثم يمضى فى البرهنة على وجود الله بما سبق بيانه ، وينتقل إلى إنكار العناية الالهية فيقول : إن دليله عند أصحابه نجاح الأشرار ، ولكنهم واهمون ، فان الآلهة إن كانوا لا يعنون بسيرتنا ، فذلك إما لأنهم عاجزون عن ضبط الأشياء ، وهذا محال ، وإما لأن السيرة الانسانية أتفه عندهم من أن تستحق عنايتهم ، وهذا محال كذلك ، لأن كل صانع يعلم أن للجزئيات شأنها فى المجموع فيعنى بها . فهل يكون الله أقل علماً من الانسان ؟ إن ساعة الأشرار آتية لا محالة . أما الشر الطبيعى فما هو فى ذاته إلا نقص فى الوجود ، أو خير أقل ، هو ضد يتميز به الخير كما يتميز الصدق بالكذب لم يرده الله ، بل سمح به فداءاً للخير الفائض على العالم ، ويستحيل أن يكون العالم المصنوع خيراً محضاً فيشابه نموذجه الدائم ، هو إذن ناقص ولكنه أحسن عالم ممكن . وعناية الله تشمل الكليات والجزئيات أيضاً بالقدر الذى يتفق مع الكليات ، ونحن نرى الطبيب

يراعى الكل قبل الجزء ، والفنان يدبر أفعاله على مقتضى الغاية ، ويرمى إلى أعظم كمال ممكن للكل ،فيصنع الجزء لأجل الكل لا الكل لأجل الجزء ؛ كذلك حال الصانع الأكبر ،فان كان الانسان يتذمر ، فلأنه يجهل أن خيره الخاص يتعلق به وبالكل معاً على مقتضى قوانين الكل.

(ج) والآن ماذا عسى أن تكون قيمة ما يبديه النقاد من استدراك واعتراض على مذهب أفلاطون فى الله ؟ فقد قيل إن كل شيء عنده إله أو إلهى : المثل،ومثال الخير ، ومثال الجمال ، والعقل،والنفس،والصانع،والعالم،والكواكب ،وآلهة الأولمب،والجن ( وهم وسط وواسطة بين الآلهة والبشر،متصفون بالحكمة والخير) ، فأين الله بين هؤلاء الآلهة وما النموذج « الحى بالذات » الحاوى جميع المثل ؟ وما العلاقة بينه وبين الصانع ، ومثال الجمال ومثال الخير ؟ ولم يقرب أفلاطون بينهم ، بل تركهم متفرقين ، وأرسل الكلام على الصانع قصة رمزية تجيز لقائل أن يقول : إن الصانع يمثل ما للمثل من قدرة وعلية فى المادة وليس شخصاً قائماً بذاته ـ نجيب أننا إذا أهملنا بعض النصوص الضعيفة العارضة واعتبرنا روح المذهب ومبادئه الاساسية لوجدنا أن توحيد الصانع والنموذج ، والخير والجمال ، وسائر المثل فى الله لا يكلف كبير عناء ، فهو الصانع من حيث هو علة فاعلية ، وهو النموذج الحى من حيث هو علة نموذجية يصنع على مثال معقولاته ، وهو : الجمال والخير ؛ من حيث هو علة غائية تحب وتطلب ، فان الصانع موصوف بالخير ، والخير موصوف بأنه مصدر المثل . أما باقى الآلهة ( وأفلاطون لا يذكر آلهة الميثولوجيا إلا تسامحاً وبشيء من التهكم ظاهر ) ، فتبعيتهم لله لا يتطرق إليها الشك : إنهم مصنوعون ، وإن خلودهم منحة من الله ، فهم آلهة باشتراك الاسم فقط ؛ ولقد أتى هذا الاشتراك من اعتقاد أفلاطون أن « مبدأ التدبير إلهى » ، فحيثما وجد التدبير والنظام وجد العقل،والألوهية متفاوتة بتفاوت الوجود ، وعلى ذلك فالآلهة الصور أو القوى التى يبدو فيها العقل الأول والاله الحق .

يوسف كرم


واجبك . . ! هـل أديته ؟

إنك ستؤديه بلا ريب . . .

أيها الشباب المثقف !

إن مجلة « المعرفة » سبيلكم إلى الثقافة الصحيحة ؛ وهى المجلة المصرية التى يضطلع بأعبائها الشاقة أحد مواطنيكم ؛ فليكن تعضيدكم إياه مشجعا له ولنيره . . على إحياء القومية المصرية

هذا واجبكم فأدوه